

الجمعة 4 رمضان 1442 الموافق 16 أبريل 2021

من إعداد الإمام : نجيم أوحادوش

## الصوم ومراقبة الله في السر والعلن

عباد الله:

إن الله تعالى لم يفرض العبادات على خلقه قصد أن يعذبهم بها أو لحاجته إليها، وإنما فرضها عليهم لمنفعة ومصالحة تعود عليهم في دنياهم وأخراهم. قال تعالى:

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ (الأنعام: 104)

ولهذا الغرض فرض الله الصيام وجعل فيه من الفوائد والمقاصد ما لا يحيط به علما إلا الله تعالى، ومن أعظم أسرار الصيام وحكمه أنه خير معين للإنسان على تحقيق تقوى الله تبارك وتعالى، ومراقبته والخشية منه، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: 183).

قال طلق بن حبيب: إذا وقعت الفتن فأطفئوها بالتقوى، قالوا: وما التقوى؟ قال: هي أن تعمل بطاعة الله على نور من الله رجاء رحمة الله، والتقوى ترك معاصي الله على نور من الله مخافة عذاب الله. (رواه ابن أبي شيبة في مصنفه)

إخوة الاسلام:

إن في التقرب إلى الله بعبادة الصيام تدريبا للنفس على مراقبة الله تعالى في السر والعلن، وهذا التدريب يكون أكثر وضوحا في الصيام منه في سائر العبادات، فهو يغرس في نفس الصائم الصبر على طاعة الله جل شأنه، ويعلمه قوة الإرادة وضبط النفس، التي تسرف في شهواتها طوال العام، فالطعام والشراب والشهوة في تناول الصائم وبين يديه بعيدا عن أنظار الناس، ومع ذلك يكف عن تعاطيها، وما يمسك الصائم عن إنتهاك حرمة الصيام إلا خشية من الله عز وجل، وعلمه بأنه يراه ويسمعه ومُطلع على أفعاله وعلى سره وجهره، فيزداد بذلك إيمانه وخوفه، فيفرضي به الأمر إلى نيل رحمة الله وجزائه العظيم ورضاه عنه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ:

«كُلُّ عَمَلٍ لِي وَآدَمُ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِئَةٍ ضِعْفٍ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِ اللَّصَائِمِ فَرِحَتَانِ: فَرِحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرِحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ وَلِخُلُوفٍ فِيهِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ» (رواه مسلم).

وفي النهاية يخرج الإنسان من مدرسة الصيام مُتْقِنًا متعلما كيف يراقب ربه الذي لا يغفل ولا ينام، مستحضرا قربه منه وذلك يوجب له الخشية والهيبه والتعظيم، فلا يقترب منكرا ولا يقرب سوءا، وبذلك يكون مؤمنا حقا ونموذجا صالحا.

أيها المسلمون:

إن من أهم الأمور التي بُعث بها النبي ﷺ تزكية النفوس، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ (الجمعة: 2)، وعلق الله فلاح العبد بتزكية نفسه، وذلك بعد أن أقسم أقساما متعددة فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (الشمس: 9).

ومن أهم ما تزكى به النفس وتطهر مراقبة الله على كل حال، والخوف منه والوقوف عند أمره ونهيه، إذ هي أساس الأعمال القلبية وعمودها الذي تقوم عليه، وهي من أهم القيم التي غرسها عليه الصلاة والسلام في نفوس أصحابه ورباهم عليها، فما هو ﷺ يعلم ابن عباس وهو غلام صغير هذه المبادئ والقيم العظيمة فيقول له:

«يَا غَلَامُ إِنِّي أَعَلَمْتُكَ كَلِمَاتٍ، أَحْفَظُ اللَّهُ يَحْفَظُكَ، أَحْفَظُ اللَّهُ تَجِدُهُ تَجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعْنَتْ فَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ، وَأَعَلَمْتُ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَيَّ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَيَّ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» (الترمذي عن ابن عباس).

ومن وصايا الحبيب ﷺ لأمته: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وَأَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ» (أخرجه الترمذي عن أبي ذر)، وقد فسر الإحسان وهو أعلى درجات الدين بالمراقبة فقال ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» (مسلم عن عمر بن الخطاب)

### إخوة الإسلام:

إن مراقبة الله التي نتعلمها من مدرسة الصيام معناها: دوماً علمك بأن الله لا يخفي عليه شيء من أمرك، يقول سبحانه وعز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (آل عمران: 5). ويقول جل شأنه: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (يونس: 61).

قال ابن المبارك لرجل: راقب الله تعالى، فسأله عن تفسيرها، فقال: كن أبداً كأنك ترى الله عز وجل (الغزالي في إحياء علوم الدين 397-4).

### معاشر المؤمنين:

هناك الكثير من الثمرات الطيبة والنتائج المحمودة في الأولى والآخرة تحصل لمن ربي نفسه على مراقبة الله، ومنها:

1- البعد عن معصية الله تعالى وذلك من مقتضى الإيمان:  
فهذا يوسف عليه الصلاة والسلام، لما راودته امرأة العزيز وكانت ذات منصب وجمال، فطلبته وهي سيدها وهو في بيتها، وألحت في مسألتها وكررت طلبها، وكان المكان خالياً وغلقت الأبواب، وكان الكريم عليه السلام شاباً قويا أعزب لزوجته له، بل توعدته المرأة وهددته، ومع ذلك كله: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (يوسف: 23).

وعن نافع مولى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: خَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي بَعْضِ نَوَاجِي الْمَدِينَةِ وَمَعَهُ أَصْحَابُهُ، فَلَمَّا وَضَعُوا لَهُ سَفْرَةَ الطَّعَامِ، مَرَّ بِهِمْ رَاعِي غَنَمٍ، فَسَلَّمَ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: هَلُمَّ يَا رَاعِي، هَلُمَّ، فَأَصَبَ مِنْ هَذِهِ السُّفْرَةِ. فَقَالَ الرَّاعِي: إِنِّي صَائِمٌ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: أَتَصُومُ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ الْحَارِّ الشَّدِيدِ سُمُومُهُ، وَأَنْتَ فِي هَذِهِ الْجِبَالِ تَرَعَى هَذِهِ الْغَنَمَ؟ فَقَالَ الرَّاعِي: إِي وَاللَّهِ، أَبَادِرُ أَيَّامِي الْخَالِيَةَ. فَأَعْجَبَ بِهِ ابْنُ عُمَرَ وَقَالَ لَهُ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَخْتَبِرَ وَرَعَهُ: فَهَلْ لَكَ أَنْ تَبِيعَنَا شَاةً مِنْ غَنَمِكَ هَذِهِ فَنُعْطِيكَ ثَمَنَهَا، وَنُعْطِيكَ مِنْ لَحْمِهَا فَنُفْطِرَ عَلَيْهِ؟ فَقَالَ الرَّاعِي: إِنَّهَا لَيْسَتْ لِي بِغَنَمٍ، إِنَّهَا غَنَمُ سَيِّدِي، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ: فَمَا عَسَى سَيِّدِكَ فَاعِلًا إِذَا فَقَدَهَا فَقُلْتَ لَهُ: أَكَلَهَا الدُّبُّ؟ فَوَلَّى الرَّاعِي عَنْهُ وَهُوَ رَافِعٌ أَصْبَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَهُوَ يَقُولُ: فَأَيْنَ اللَّهُ... فَجَعَلَ ابْنُ عُمَرَ يُرَدِّدُ قَوْلَ الرَّاعِي، يَقُولُ: قَالَ الرَّاعِي فَأَيْنَ اللَّهُ، فَأَنَا وَاللَّهِ أَحَقُّ أَنْ أَقُولَ فَأَيْنَ اللَّهُ. قَالَ نَافِعٌ: فَلَمَّا قَدِمَ ابْنُ عُمَرَ الْمَدِينَةَ بَعَثَ إِلَى مَوْلَاهُ فَاشْتَرَى مِنْهُ الْغَنَمَ وَاشْتَرَى الرَّاعِي فَأَعْتَقَ الرَّاعِي، وَوَهَبَ لَهُ الْغَنَمَ. (رواه البيهقي في شعب الإيمان 223/7 رقم 4908 والطبراني في المعجم الكبير ج 12 ص 263 ح 13054، وحسنه الألباني في الصحيحته تحت حديث: 3161)

إنها قصة قصيرة، لكنها تعطي انطباعاً عن حال السلف الصالحين الأولين من الصحابة والتابعين وأتباعهم أهل القرون الفاضلة، إنها تحكي أخلاقهم الفاضلة وحالهم مع الأمانة والمراقبة لله، ومجاهدة النفس على مشاق الطاعة، ونحن والله أحق أن نقول: فأين الله.. وأحق أن نربي أنفسنا وأهلينا على مراقبة الله في زمن سهلت فيه ذنوب الخلوات، نعم، نحن بحاجة أن نقوي واعظ الإيمان في قلوبنا ليصرخ الواعظ أمام المحرمات المغريات قائلاً: فأين الله، مستحضراً قول الله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ (العلق: 14)، وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ (البلد: 7)

وبعد، فالمؤمن الحق الذي آمن برب عليم خبير محيط، سميع بصير، رقيب شهيد، مهيمن حفيظ، يتعبد لربه بمقتضى هذا الإيمان ويستشعر أن الله هو الرقيب على الخواطر واللواحق، كيف بالأفعال والأركان، فيكون حاله كما قال الشاعر:

والنفس داعية إلى الطغيان  
إن الذي خلق الظلام يراني

وإذا خلوت بريئة في ظلمة  
فاستح من نظر الإله وقل لها

روى مالك في الموطأ عن عبد الله بن دينار قال: خرج عمر بن الخطاب من الليل فسمع امرأة تقول:

تطاول هذا الليل واسود جانبه وأرقني أن لا خليل لأعبه

فوالله لولا الله أني أراقبه لحرك من هذا السرير جوانبه

فسأل عمر ابنته حفصة: كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت: ستة أشهر، أو أربعة أشهر، فقال عمر: لا أحبس أحداً من الجيوش أكثر من ذلك.

2- ومن ثمرات مراقبة الرقيب تعالى أيضا أن بها تصلح حياة الخلق مع الله وتستقيم الأمور بين العباد، بالمراقبة تؤدي الواجبات والحقوق والأمانات، وبها يُقام العدل والوئام وتُصان الحقوق وتُحفظ الدماء والأعراض.

3- ومن أعظم ثمرات المراقبة الجنة وما فيها من نعيم مقيم، جعلنا الله وإياكم من أهلها، قال جل جلاله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (الملك: 12)

وقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ \* فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن: 46-47).

### إخوة الاسلام:

إن رمضان يُحدث ثورة في فكر الإنسان وفي فهمه وعمله، يحدث ثورة في الأمة التي لا تراقب ربها، لتعود مرة أخرى لتعيش معنى الإيمان الحقيقي والإسلام الصحيح والإرتباط القويم بربها، الذي فرض عليها الصيام ليقوم مسيرة حياتها، وليرفع به ذكرها وليعلي به قدرها.

هذا وصلوا وسلموا على رسول الله.

اللهم ارزقنا خشيتك في الغيب والشهادة، وكلمة الحق في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، ونسألك نعيماً لا ينفد وقرة عين لا تنقطع، ونسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الممات، ولذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقاءك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، يا أرحم الراحمين.

اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، اللهم إنا نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى، اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، اللهم إنا نعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجاءة نقمتك، وجميع سخطك، اللهم إنا نسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لنا وترحمنا، وإذا أردت بقوم فتنة فتوفنا إليك ونحن غير مفتونين، برحمتك يا أرحم الراحمين.

ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم.

ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.